التمرد بوصفه ظاهرةً جماليةً

د. حبيبة محمدي
قسم الفلسفة
جامعة الجزائر 02

تمهيد:

يسعى الإنسان إلى الانعتاق -بوصفه كائنا حرا- من وضعه القائم، النفسي، الفكري، الاجتماعي، الاقتصادي وحتى السياسي.

هل المتمرد هو الإنسان الذي يقول لا؟

هل المتمرد هو الإنسان القادر على الرفض دائما؟

هل هو من لا يرضى بالواقع كما هو، ولا بحالته كما هي، فيصبو ويتطلع إلى الأفضل، ويحلم بالأجمل؟

في هذا المقال، سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات وغيرها، خاصة سؤال التمرد ومفهومه واقعيا وفلسفيا (في الفكر الفلسفي المعاصر) وعند كامو -نموذجا- بصفة خاصة.

مفهوم التمرد:

أ. إذا بحثنا عن معنى التمرد كمصطلح لغويا قبل مفهومه الفلسفي، نتوقف عند بعض الموسوعات التي رأت في معناه أنه: أي التمرد، فعل ما، يصدم بطريقة حيوية، وهو انتفاضة ضد شيء ما، كأن تنتفض الشعوب ضد القمع والظلم. هو انتفاضة ضد السلطة القائمة وتمرد عليها، فهو انتفاضة عنيفة توحي بشعور الثورة أو التمرد؛ ومن مبررات المتمردين، الإثارة ضدهم، أو المساس بكرامتهم.

وفعل تمرد هو فعل متعدي = V.tr révolter

ومتمرد هي صفة واسم في آن واحد لمن هو على حال التمرد = Révolté وصفة = Révoltant

فهو من يتمرد من أجل كرامته أو ثائر من أجل قضية كرامة.[1]

- Révolté, en révolte

- Rebelle = rebellions[2]

- متمرد = عصي، عاصي، ثائر.

- تمرد (على)= خرج (على)، ثار (على)، قام (على). عصى، قاوم، عارض، رفض طاعة فلان، وقف في وجهه، أو قام في وجهه.

= Se révolter (contre), se rebeller (contre), se soulever (contre).
= To rebel (against), revolt (against), rise up (against).

- تمرد = عصيان، عدم الطاعة، ثورة =

= Révolte, rébellion, soulèvement, désobéissance.
= Insurrection, rebellion, disobedience[3].

إننا لا نستطيع أبدا المساس بالطرح اللغوي أو "اللساني" للتمرد ولكن بلا شك نستطيع أن نكيف المعنى فلسفيا وفق طرح كامو، على وجه الخصوص.

ب. إن الإنسان هو الكائن الذي لا يرضى أبدا عن كيانه حيث إنه دائم السعي إلى تغييره وعلوه عليه – وتلك سمة إنسانية– فالتمرد بهذا المعنى موجود في كل تجربة إنسانية بوصفه سمة إنسانية –كما أسلفنا– لأن كل تجربة إنسانية جديرة بهذا الاسم تحتوي على نوع من الرفض للواقع كما هو عليه.[4]

فعندما ينعدم المنطق أمام وضع جائر مستغلق، نشأ التمرد، إذا ضاق الواقع اتسعت آفاق العقل والروح الوثابة. فالتمرد ينشأ ويتعزز أيضا لما يكون فيه الإنسان من تمزق، ولأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يرفض أن يكون ما هو، لذلك يتمرد على وضعه.[5]

إن حركة التمرد تستند –في آن– إلى رفض قاطع لتعدٍّ لا يطاق وإلى يقين مبهم بوجود حق صالح وبصورة أصح إلى اعتقاد المتمرد أن "له الحق في أن.." حيث لابد للمتمرد من أن يكون مقترنا بشعور الإنسان بأنه على حق بصورة ما وفي مجال ما وبهذا المعنى يقول العبد المتمرد نعم ولا في الوقت نفسه.[6]

لذلك يرى كامو أن الإنسان المتمرد هو إنسان يقول لا وحتى لو رفض فهو لا يتخلى، فهو أيضا إنسان يقول: نعم. صحيح أن كل قيمة لا تولّد التمرد ولكن كل حركة تمرد تستدعي ضمنيا وجود قيمة.[7] كأن هذه القيمة هي ما يستدعي التحرك

من أجله، النهوض، الثورة، التمرد. إذن فلماذا يثور الإنسان لو لم يكن هناك في ذاته شيء دائم يستدعي أن نصونه ونحافظ عليه؟

إن (شرعية) التمرد –إن صح هذا التعبير– مقترنة بقيمة ما يستوجب التمرد من أجله ومن أجل صيانته، فبدون قيمة ما يدفع الإنسان للتحرك تجاه التمرد، تكون حركة الإنسان محض عبث absurde.

لكننا نتساءل: هل يكون المتمرد مجرد إنسان يقول "لا"؟

أي مجرد كائن يرفض ويستنفد طاقته في هذا الرفض.

إن التمرد ينطوي على اللا non والنعم oui، ومثل ذلك مثل مَنْ له حقوق فهو يقول نعم لحقوقه نفسها ويقول لا لمن يدوس هذه الحقوق بقدميه.(8)

كأنك تصرخ في وجه من يضطهدك ويذلك بأنه تجاوز الحد.(*)

إن التمرد يحتوي على التوتر الدائم بين النعم le oui واللا le non بين التأكيد والرفض وبين الوجود والعدم. بمعنى هذا التمزق هو جوهر التمرد.

ما بين السلب والإيجاب، يُرَجِّحْ أن "التمرد هو إيجابي في عمقه، ما دام يكشف ويظهر أن ما في الإنسان يجب الدفاع عنه دائما".(9)

وإذا كان العبث أو المحال اللامعقول هو تلك المواجهة Confrontation – حسب كامو–ما بين الوعي والعالم، فإن التمرد دائما في جوهره نوع من المواجهة أيضا والتقابل الحاد بين الوعي الناصع وبين العالم غير المعقول، لأنه عالم غريب étranger (**) وغامض énigme ولا سبيل إلى فهمه ومعرفته بسهولة.

فالعبث هو مقابلة الوعي الذي هو "رغبة مجنونة في الوضوح مع اللاعقلاني" هذه المقابلة هي التي تحوي معنى العبث، الذي هو ليس العالم ولا أنا بوصفي إنسانا لكنه العلاقة التي تربط العالم بالإنسان.

إن تجاوز التجربة العبثية للانتقال إلى التمرد، واجب الحدوث، فالتجربة العبثية يتكون محتواها من عنصرين متناقضين هما الوعي الذي يدهشه الوضوح والعالم الفاقد للمعنى.

إن التمرد دائما ما يقترن بمعنى البراءة والنقاء وكل تمرد في حقيقته شوق إلى البراءة وكل متمرد هو من ناحية المبدأ إنسان بريء. والتمرد حركة تصدر عن تجربة الفرد وتؤدي إلى الفكرة. يكافح التمرد في سعيه إلى الوحدة السعيدة ضد الشر والموت محاولا تحقيق عدالة ملائمة وحرية ممكنة. وهذا السعي إلى الوحدة يحاول أن يصالح بين اللامعقول والمعقول وأن يجمعهما على صعيد واحد، أي يصالح ويوازن بين العبث والوعي، ذلك الوعي الذي هو في مواجهة العبث دائما، لذلك يرى كامو أن التمرد بما هو تمرد هو في الحقيقة تمرد على العبث، ولا وجود للعبث إلا إذا وجد التمرد عليه.

إن التمرد لا يمكن تبريره إلا حيث يبقى الإنسان وفيا لبنائه الديالكتيكي Dialectique، الجدلي، ولا يستطيع أن يزعم لنفسه أن يطلب الوحدة إلا حيث يتمسك بالحدود بين لا ونعم non et oui وهذه الحدود التي رسمتها الطبيعة.

يذكر كامو دائما أن نشدان الوضوح والبراءة والنقاء هي منابع التمرد الحق وهذه في الوقت نفسه سعي إلى الوحدة.

وسئل كامو عن الإنسان فأجاب في إحدى رسائله من "رسائل إلى شاب ألماني" بأنه الثورة Révolution التي تنتهي دائما إلى أن تهز الطغاة، إنه قوة الوضوح الإنساني Lucidité humaine التي يجب أن نحافظ عليها.[10]

إن عبارة "أنا أتمرد" عند كامو، هي عبارة تعبر وحدها عن تمزق الإنسان المتمرد، عن توتره الدائم وعذابه المتصل من المتناقضات التي يعيش فيها، والتي تؤدي إلى استيقاظ الوعي الذي سيعبر عما يعانيه من المتناقضات في التوتر الديالكتيكي بين الشر والخير، العدل والظلم والموت والحياة.

وإذا أضاف التمرد الميتافيزيقي إل عبارة "أنا أتمرد" قوله: "إذن فنحن موجودون وحدنا" فإن التمرد المتواضع الوفّي لمنبعه وأصله والعارف بحدوده يلخص مقولته فيما يلي:

"أنا أتمرد إذن فنحن موجودون" « Je me révolte donc nous sommes ».

(وهذا يحيلنا إلى مفهوم آخر عند كامو هو التضامن solidarité) ليس هذا مجاله.

كأن الإنسان يتجاوز في التمرد نفسه لكن بواسطة الآخرين، فالحركة لا تكون أنانية بل هي كثيرا ما تكون تضحية من أجل الآخرين، بمعنى يتمرد الفرد من أجل الدفاع عن الآخرين.

"أنا أتمرد إذن فنحن موجودون" إن هذه الكوجيتة الجديدة تعد بمثابة حقيقة بديهية تنتشل الفرد من عزلته، إنها محل مشترك يرسي القيمة الأولى على البشر جميعا هذه الصيغة التي قال عنها « Eric Werner » (إنها صيغة أولى، صيغة البدء لكامو، ملغزة نوعا ما لأول وهلة ليس هناك أقل بديهية من إحالة التمرد إلى "النحن")[11].

ولأن التمرد هو من مقومات فكر كامو، فإنه يصعب الفصل الحاسم بين مقومات التجربة الإنسانية/الفلسفية عنده.

فالتمرد عند كامو موجه نحو العبث/اللامعقول هو تطلع في اتجاه العبث وهو يقذف بالوعي نحوه، فأن يحيا الإنسان هو أن يحيا العبث، فالعبث لا يموت إلا حين ينصرف عنه الإنسان. والتمرد هو حركة موجهة ضد إنسان ما ومعه تنطوي على اللا والنعم، الرفض والموافقة في وقت واحد. فدراسة كامو للتمرد جعلته يجزم بوجود ذلك التوتر المتصل مرة أخرى بين اللا والنعم le non et le oui عند المتمرد بالاستسلام للنفي المطلق أو بإلقاء نفسه بين أحضان التأكيد المطلق. والحقيقة أننا لا نستطيع فهم هذا إلا إذا ألقينا الضوء على الجوانب الإستطيقية والجمالية في فكر كامو من خلال أعماله الفنية /الإبداعية.

التمرد والفن عند كامو:

إن الإستطيقا جزء متكامل من فلسفة التمرد، حيث تحاول هذه الفلسفة أن تصل عن طريقه إلى التركيب Synthèse المبدع والخلاَّق، وهذا التركيب لا وجود له في الفن أو في التمرد إلا حيث يكون الطرفان، الرفض والموافقة، النعم واللا – كما قدمنا– يكونان على أشد التناقض والتوتر والتمزق.

فمن التوتر يكون الخلق، وفي الخلق الفني وحده نستطيع أن نجد أصل التمرد ومنبعه النقي الحق. (12)

إن مسألة الفن الرئيسية عند كامو هي معادلة الواقع في محاولة فنية ناجحة، ذلك أن الفن في نظر كامو ليس تسلية فردية إنما هو وسيلة للتأثير على أكبر عدد من الناس بتقديمها لهم صورة متميزة للآلام والمباهج المشتركة.

إن الفن ليس في جوهره سوى تلك الحركة التمردية التي يقوم بها الإنسان حينما يعمد إلى رفض الواقع من أجل العمل على خلق العالم الجديد الذي يستطيع أن يجد فيه ما ينشده من وحدة واتساق وتماسك أيضا.

إن إنسان كامو هو أولا وأساسا موضوع التمرد، لذلك كان التمرد حالة وجودية والمتمرد هو إنسان يقول لا، وهذه اللا ليست هي السلب لأن التمرد ليس هو السلب بل هو الخلق والإبداع.

وحسب كامو لا خلاص للمجتمع الحديث إلا بالجمع بين الثورة والإبداع، ولأنه يبحث عن الخلاص "فالتمرد هو مواجهة بلا ملل ضد الألم". (13)

لذلك أيضا نجد جل شخصيات وأبطال أعمال كامو هم شخصيات متمردة (من سيزيف بطل الأسطورة وميرسو Mersault بطل الغريب إلى كاليجولا Caligula إلى ريوتارو Rieux Tarau وغيرهم..).

فالشخصيات يربطها التمرد ويربط ما بينها فكر التمرد الذي هو أساس فلسفة كامو. فكامو هذا "الإنسان المتمرد"(***) يؤكد أن البديهية Postulat الوحيدة التي أتلقاها في صميم التجربة هي التمرد La révolte.

إن فكرة التمرد واضحة في الفن لأن الفن بمعنى ما هو أيضا تمرد، ثورة ضد القبح، وانتصار للجمال "إن الفن ليس هو الرفض التام ولا القبول التام لما هو قائم، الفنان يوجد دائما في هذا الالتباس".

« L'art n'est ni le refus total, ni le consentement total à ce qui est.. l'artiste se trouve toujours dans cette ambiguïté » (14).

وهذا الالتباس الحاصل، هو القائم بين الفيلسوف والفنان حيث يجد فيه الفنان نفسه غير قادر على إنكار الواقع ويجد نفسه يناقش ما يراه غير كامل.

لذلك كتب كامو الرواية كتعبير فني يكمل به ما يراه ناقصا في العالم.

"إن الفيلسوف يحاول الإجابة على أسئلته وأسئلة الكون الجوهرية بصيغة مجردة، بينما يجسد الروائي أسئلته بدلا من إجاباته في سمك أو جدار العالم المحسوس".(15)

لقد أصر كامو على كتابه الرواية كشكل فني للتعبير عن فلسفته، ربما لاكتمال نقص العالم وعدم وضوحه. إن عملية الخلق، للنقص في الخلق لأنه غير كامل فيلتزم الفنان بخلقه من جديد، فنحن لا نفكر إلا بالصور، هكذا يقرر كامو، ففي 1936 كتب يقول: "إننا لا نفكر سوى بواسطة الكلمات، إذا كنت تريد أن تصير فيلسوفا، اكتب رواياتٍ".(16)

إن النشاط الروائي بوصفه نوعًا من الفن، يفترض أيضا نوعًا من رفض الواقع. فالفنان هو ذلك الخالق الذي ينظم العالم عن طريق مجموعة من الوسائط الاستطيقية الخاصة وفي مقدمتها واسطة أو وسيلة التعبير.

والعمل الفني يكتمل بناؤه عندما يكون ثمرة لامتزاج الصورة بالمادة وتوافق المبنى مع المعنى والشكل مع الموضوع ليكون وحدة فنية تجعل منه موضوعًا جماليًا Sujet ésthétique.(17)

خاتمة:

ولأن الفن هو المجال الوحيد الذي يحقق فيه التمرد الانتصار الكامل له، فإنه قد أصبح، هذا الفن، مطلبا جماليا exigence esthétique حيث يؤكد كامو بأن مطلب التمرد هو في حد ذاته مطلب جمالي.

إن مطلب التمرد للوحدة هو في الوقت نفسه مطلب جمالي وفني، فرفض العالم والموافقة عليه في وقت واحد هو ما يؤكد أن التمرد والإبداع من طبيعة واحدة. وكما يقول كامو: "الإبداع نشدان وحدة ورفض العالم".(18)

غير أن الفنان أو المبدع يرفض العالم بسبب ما فيه من نقص، بسبب ما ينقصه وأحيانا باسم ما هو. إن الفن حسب كامو دائما هو هذه الحركة التي تمجد وتنكر في وقت واحد. فالفنان الذي يريد أن يبدع الجمال مضطر إلى أن يرفض

الواقع اضطراره في ذات الوقت إلى تمجيد بعض جوانب هذا الواقع نفسه، فالفن ينازع وينافس في قيمة الواقع أو يلغيه وينكره في بعض الأحيان ولكنه أبدا لا ينسلخ عنه. فما من فنان يستطيع الاستغناء عن الواقع.

فإذا كان كامو يؤكد أن الإبداع الفني هو نشدان للوحدة ورفض للعالم في آن واحد، فهو بهذا التأكيد لا يقتصر على أن يقدم لنا التعريف الملائم للتمرد La révolte وأن يبصرنا ببنائه الديالكتيكي Dialectique فحسب، بل إنه يقدم لنا كذلك مفتاح فهم تفكيره الفلسفي على المستوى الجمالي والمستوى التاريخي معا.[19]

وإذا كنا نفهم العالم استطيقيا بوصفه ظاهرة جمالية، فإن "التمرد" كمفهوم فلسفي يمكن دراسته بوصفه أيضا ظاهرة جمالية ووجها آخر لفلسفة كامو في مستوياتها المتعددة.

الهوامش:

(1) Larousse, Tome 3, p459.

(2) د. روحي البعلبكي، المورد الثالث، ص1495.

(3) المصدر نفسه، ص555.

(4) د. مكاوي، ألبير كامو، ص ص112،111.

(5) كامو، الإنسان المتمرد، ص ص16،15.

(6) المصدر السابق، ص18.

(7) المصدر السابق، ص19.

(8) د. مكاوي، ألبير كامو، ص112.

(*) الحد = limite (F)، limit (E) ومعنى الحد في اللغة العربية هو منتهى الشيء وللحد معنى مجازي وهو دلالته على النقطة التي ينتهي عندها إمكان الفعل (المعجم الفلسفي د. جميل صليبا، ص45). إن فكرة الحد ينبغي أن تفهم دائما في التحول المستمر في حركة التمرد الديالكتيكية، فالحد في حقيقته توتر خالص، وتمزق الموجود بين لا مطلقة ونعم مطلقة. إنه صراع مستمر
(د. مكاوي، ألبير كامو، ص142).

(9) Roger Quilliot et Louis Faucon, Albert Camus, p429.

(**) الغريب تُفْهَمْ أيضا بالإحالة إلى العمل الروائي لكامو الذي يحمل مضامين الغريب والأجنبي في الوقت نفسه، و"الغريب" l'étranger التي كتبت حوالي العام 1940 ونشرت حوالي العام 1942، تعد من أهم أعمال كامو وقد قال عنها غاليمار Gallimard إنها رواية عظيمة Grand roman (Michel Maillard, Camus p26).

(10) كامو، وجها الحياة، ص139.

(11) Eric Werner, Essaies..., p99.

(12) د. مكاوي، ألبير كامو، ص152.

(13) Eric Werner, Liberté..., p55.

(***) الإنسان المتمرد = نشر الكتاب سنة 1951، عندما انتهى كامو من العبث اتجه نحو متابعة فكرة التمرد من خلال عمل فلسفي يحمل هذا العنوان "الإنسان المتمرد" فهو دراسة فلسفية وليس برواية أو مسرحية. وقد أثار عاصفة كبيرة من الآراء المتباينة لما يحمله من جرأة في الأفكار.

(14) Denis Salas, Albert Camus..., p7.

(15) Anne-Marie Amiot, Jean François Mattéi..., p24.

(16) Ibid, p27.

(17) د. زكريا ابراهيم، مشكلة الفن، ص ص57، 58.

(18) كامو، الإنسان المتمرد، ص314.

(19) د. مكاوي، ألبير كامو، ص148.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

1- كامو، الإنسان المتمرد، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت. باريس، ب.ت.

2- كامو، وجها الحياة، ترجمة: سامي الجندي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، 1962.

ثانيا: المراجع:

1- د. زكريا ابراهيم، مشكلة الفن، مكتبة مصر، ب.ت.

2- د. عبد الغفار مكاوي، ألبير كامو – محاولة لدراسة فكره الفلسفي – دار المعارف مصر، 1964.

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية:

1- Anne-Marie Amiot & Jean François Mattéi, Albert Camus et la philosophie, presses universitaires de France, 1ère édition 1997.
2- Denis Salas, Albert Camus, la juste révolte, éditions Michalon 2002.
3- Eric Werner, Essai sur la pensée de Camus et de Sartre, Calmann Lévy 1972.
4- Eric Werner, Liberté de l'esprit dirigée, 1er livre par Laymond Aron de l'institut.
5- Michel Maillard, Camus, éditions Nathan 1993.
6- Roger Quilliot et Louis Faucon, Albert Camus. Essaies, Cam, Gallimard, France, 1965.

رابعا: موسوعات ومعاجم:

1- Larousse, librairie Larousse Paris 1966, (3 tomes).

2- المعجم الفلسفي د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى 1971.

3- المورد الثلاثي د. روحي البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 2004.